توقيفية الرسم العثماني في القراءات القرآنية

د. راضية بن عريبة

جامعة الشلف

للخط العربي منذ عهد بعيد سحره وجماله وجاذبيته، يستوقف الناظر ويثير الدهشة والإعجاب، ولو تأملنا تلك الرسائل المتبادلة بين الخلفاء والملوك والتي كتبت على الورق لرأينا إبداعها، وهي تكشف عن مفاتن خطوطها وتكوينيتها وإحاءاتها وأصالتها ودلالتها[1].

وهي إن دلت على شيء فإنها تدل على براءة ومهارة الخطين، إنهم يرسمون الحرف فينطق بالكثير مما هو بديع ورائع.

إنهما يعزفون على أوتاره الحساسة والرفيعة، فتأتي الكلمة مفعمة بكل ما هو جميل وأصيل ومشعة ببهاءها ورونقها وقناديلها.

ويعتبر الخط والكتابة وجهان لعملة واحدة، وهما عصارة فكر الإنسان الذي فكر في الإبداع منذ الأزل وسيبقى يفكر في خلود الفكر والأثر إلى الأبد[2].

كان نتيجة مرحلة الرفاهية والارتقاء التي مرت بها الكتابة العربية، اعتبار من القرن الثاني هجري أن أخرجت هذه الكتابة خطوط مختلفة تنوعت تنوعا كبيرا واتخذت كل مجموعة منها خصائص معينة واسما خاصا وقد جاء هذا التنوع إما استنادا للمكان الذي طور فيه الخط أو استنادا إلى الغرض الذي يستخدم فيه أو استنادا إلى خصائص ذاتية وملامح فارقة في مرحلة الرفاهية بل في بعض الأحيان جاءت استنادا إلى قطع الورق الذي يكتب فيه ونوعية الزخارف التي تدخل عليه كما كان الخط يستند أحيانا إلى اسم مشتقه ولذلك كانت عدد الخطوط التي طرحتها الكتابة العربية حوالي مئة خط[3].

1-مفهوم الرسم العثماني لغة واصطلاحا

أولا: لغة

الرسمُ: الأثر وقيل: بقية الأثر، وقيل: هو ما ليس له شخص من الآثار وقيل: وهو لصق بالأرض منها، ورسم الدار: ما كان من آثارها لاصقا بالأرض، والجمع أرسم ورسوم، ورسم الغيث الدار: عفنها وأبقى فيها أثرا لاصقا بالأرض، قال الحطيئة:

أمن رسم داري مربع ومصيف * لعينيك من ماء الشؤون وكيف؟

رفع مربع بالمصدر الذي هو رسم، أراد: أمن رسم داري مربع ومصيف دارا، وترسم الرسم: نظر إليه، وترسمت إلى الرسوم أي نظرت، وترسمت المنزل: تأملت رسمه وتفرسته، قال ذو الرمة:

أأن ترسمت من خرقاء منزلة * ماء الصبابة، من عينيك مسجوم؟

وكذلك إذا نظرت وتفرست أين تحفر أو تبني، وقال: الله أسقاك بآل الجبار ترسم الشيخ وضرب المنقار، والرسوم: كالرسم، وأنشد ابن بري للأخطل:

أتعرف من أسماء بالجد رسوما * مجينا ونؤيا دارسا متهدما؟[4]

ورسم في الأرض: غاب، والراسم: الماء الجاري والناقة، رسوم: تؤثر في الأرض من شدة الوطء، ورسمت الناقة ترسم رسيما: أثرت في الأرض من شدة وطئها، والارتسام: التكبير والتعوذ[5].

ثانيا: اصطلاحا

لقد عرف علماء الرسم بقولهم: هو الوضع الذي ارتضاه الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه في كتابة كلمات القرآن وحروفه[6].

وقال آخرون: الرسم عند القراء هو ما قد كتبت عليه المصاحف الأئمة في عهد عثمان بن عفان وبأمره، وعليه فالرسم في الاصطلاح هو أمر يتعلق بكيفية كتابة حروف القرآن وكلماته التي رسمها الصحابة رضوان الله عليهم بالخط العربي وبالحبر الأسود

في المصاحف العثمانية والتي تعتبر الأصل والمصدر الذي يعتمد عليه في نقل القرآن الكريم أي في كتابة الكلمات القرآنية ورسم حروفها إلى يوم الدين، فالمصاحف التي كتبها الصحابة تحت إشراف سيدنا عثمان بن عفان هي التي اشتهرت عند علماء القراءة بالمصاحف الأئمة أي أولى المصاحف التي كتبها الصحابة بشكل يحتوي على جميع القراءات القرآنية والأوجه الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم، والتي استقر عليها القرآن الكريم في العرضة الأخيرة للنبي صلى الله عليه وسلم مع جبريل عليه السلام، يقول في ذلك عبد الهادي الفضيلي: إن الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه وأرضاه عندما أوصى بتوحيد المصاحف وكتابتها استهدف أن ينطوي مرسوم المصاحف على جميع الحروف التي استقر عليها نص القرآن في العرضة الأخيرة[7].

2-توقيفية الرسم العثماني وعلاقته بالقراءات القرآنية

أولا: الرسم العثماني قياسي وتوقيفي

ذكرنا في التعريف الاصطلاحي للرسم العثماني وقلنا بأنه كتابة المصاحف العثمانية، وهذه الكتابة قسمان: رسم قياسي ورسم توقيفي[8].

معنى قياسي:

القياسي هو ما وافق قواعد الإملاء في العربية، كان تكتب لفظ الكتاب هكذا "كتاب" بألف بعد التاء، بخلاف الاصطلاحي الذي يكتب فيه هكذا "كتب" وليس هذا هو المقصود في دراستنا هذه، إنما ذلك على سبيل التعريف[9].

معنى توقيفي:

المراد برسم التوقيفي أنه من تلقين جبريل عليه السلام لرسول الله صلى الله عليه وسلم، أي من الله تبارك وتعالى لا يصح فيه التبديل والتغيير، ويسمى بالاصطلاحي كذا لأنه من اصطلاح الصحابة رضوان الله عليهم[10].

ثانيا: مذاهب العلماء في توقيفية الرسم العثماني

لقد اختلف العلماء بأن رسم القرآن الكريم منقسمين في ذلك إلى مذاهب ثلاثة هي كالتالي:

المذهب الأول:

يرى فريق من العلماء بأن رسم القرآن توقيفي يجب إتباعه وتحرم مخالفته وهو مذهب الجمهور وعندهم التوقيفي هو نفسه الاصطلاح لأنه من اصطلاح النبي صلى الله عليه وسلم، كما نقله عنه كتاب الوحي أمثال: زيد بن ثابت رضي الله عنه وبالتالي فهو من جبريل عليه السلام عن الله تبارك وتعالى، وأن الطاعن فيه هو طاعن فيما هو صادر عن الله ورسوله، يقول في ذلك صاحب كتاب دليل الحيران: رسم القرآن سر من أسرار المشاهدة في كمال الدفعة وهو صادر من النبي صلى الله عليه وسلم، وهو الذي أمرهم أن يكتبوه على الهيئة المعروفة بزيادة الألف ونقصها ونحو ذلك لأسرار لا تهتدي إليها العقول إلا بالفتح الرباني وهو سر من الأسرار خصّ الله به كتابه العزيز دون سائر الكتب السماوية، فكما أن نظم القرآن معجما فرسمه معجزا أيضا[11].

وكذلك يستدل أصحاب هذا الرأي بأن علمية كتابة القرآن كانت بإشراف الرسول صلى الله عليه وسلم على كتاب الوحي الذين كانوا يكتبون له القرآن، وقد تم ذلك كله في حضرته عليه الصلاة والسلام ومثل ذلك جمعه بعد وفاته خاصة جمع أبي بكر الصديق، ومثله عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأن زيد بن ثابت كان لا يكتب إلا ما شاهد شاهدان عدلان على أن هذا قد كتب بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبأن جميع الصحابة كانوا على هذا الرسم ولم يبدلوه برسم آخر ومنهم من ذهب في ذلك الاستدلال بقول النبي صلى الله عليه وسلم: "ألف الدواة وحرّف القلم وأنصب الباء وفرّق السين ولا تعود الميم وحسن الله ومدّ *الرَّحْمَـٰن* وجود الرحيم وضع قلمك على أذنك اليسرى فإنه أزكى لك"[12].

كما ثبت عن الإمام مالك أنه سئل هل يكتب المصحف على ما أحدثه الناس من الهجاء؟ فقال: لا إلا على الكتب الأولى[13].

وهكذا من أصحاب هذا الرأي من يكفر الذي بغير مرسوم القرآن معتمدا فيخالف ما رسمه الصحابة في حرف واحد بالزيادة أو النقص وهذا ما ذهب إليه القاضي عياض حيث يقول: "أجمع المسلمون على أن من نقص حرفا أو بدله بحرف مكانه أو زاد فيه

حرفا ما لم يشتمل عليه المصحف العثماني المسمى بالإمام الذي تمّ الإجماع عليه من الصحابة، وأجمع على أنه ليس من القرآن عامدا لكل هذا أنه كافر"[14].

وقال الإمام أحمد بن حنبل تحرم المخالفة خط مصحف عثمان في واو أو ياء أو ألف وغير ذلك[15]، فهذه أدلة ما لكية وحنبلية كما ثبت أيضا عن الشافعية أنه لا يجوز كتابة المصحف بغير الرسم العثماني لما نقله البيهقي في شعب الإيمان "أن من كتب مصحفا ينبغي أن يحافظ على الهجاء الذي كتبوا به تلك المصاحف ولا يخالفهم، ولا يغير مما كتبوه شيئا فإنه أكثر الناس علما وأصدق لسانا وأعلم أمانة فلا ينبغي أن نظن بأنفسنا استدراكا عليهم"[16].

المذهب الثاني:

وذهب فريق آخر إلى القول بأن الرسم العثماني ليس توقيفيا، إنما هو اصطلاح الصحابة رضوان الله عليهم تجوز مخالفته وقد اعتمد هذا المذهب ابن خلدون ومن نهج نهجه وتحمس لرأيه أمثال القاضي أبي بكر الذي قال في كتابه الانتصار "يقول ابن خلدون فكأن الخط العربي أول الإسلام غير بالغ إلى الغاية من الإحكام والإتقان ولا إلى التوسط لمكان العرب من البداوة والتوحش وبعدهم عن الضائع، وانظر إلى ما وقع لأجل ذلك في رسمهم المصحف حيث رسمه الصحابة بخطوطهم غير مستحكمة في الإجابة فخالف الكثير من رسومهم ما اقتضته رسوم صناعة الخط عند أهلها ثم اقتضى التابعون من السلف رسمهم فيها تباركا بما رسم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وخير الخلف من بعده المتلقون لوحيه من كتاب الله وكلامه كما يقتضي لهذا العهد خط ولي أو حاكم تباركا به ويتبع رسمه خطأ أو صوابا"[17].

ويؤكد أبو بكر هذا الرأي في كتابه الانتصار فيقول: وأما الكتابة فلم يفرض الله على الأمة فيها شيئا إذا لم يأخذ على كتاب القرآن وخطاط المصاحف رسما بعينه دون غيره أوجبه عليهم وترك ما عداه إذ وجود ذلك لا يدرك إلا بالسمع والتوقيف، وليس في نصوص الكتاب ولا مفهومه أن رسم القرآن وضبطه لا يجوز إلا على وجه مخصوص وهو محدد لا يجوز تجاوزه ولا في إجماع الأمة لا يجب ذلك وقد دلت عليه القياسات الشرعية بل السنة دلت على جواز رسمه بأي وجه سهل لأن الرسول كان يأمر برسمه ولم يبين لهم وجها معين ولا نهى أحدا عن كتابته، وبالجملة فكل من ادعى أنه يجب على الناس رسم مخصوص وجب عليه أن يقيم على دعواه وأنه له ذلك، انتهى كلام أبي بكر يدعم أصحاب هذا المذهب بأدلة أخرى منها اختلاف القريشيين مع زيد بن ثابت الأنصاري في بعض الألفاظ كلفظ التابوت مثلا: أيكتبونه بالتاء أو الهاء، وعند تحكيمهم الخليفة عثمان بن عفان أمرهم أن يكتبوه بالتاء[18].

المذهب الثالث:

أما المذهب الثالث فقد ذهب أصحابه إلى رأي وسط بين المذهبين السابقين ومن مشاهير المؤيدين له العز بن عبد السلام فقد ثبت عنه أنه جوز كتابة المصحف لعامة الناس على الاصطلاحات المعروفة والشائعة عندهم ولا تجوز كتابته لهم بالرسم العثماني الأول لكي لا يقع في تغيير من الجهال، إلا أنه يجب المحافظة على الرسم العثماني كأثر من الآثار النفعية الموروثة على سلفنا الصالح، فلا يهمل مراعاة لجهل الجاهلين، بل يبقى في أيادي العارفين الذين لا تخلوا منهم الأرض[19].

ثالثا: علاقة الرسم العثماني بالقراءات القرآنية

إذا كان الأصل في تلاوة القرآن هو التلقي والمشافهة، وهي من أجل الخواص التي تميز القرآن عن غيره، بحيث يقرأ القارئ، ويستمع السامع، ثم يعيد السامع قراءة ما سمعه ليحصل على الإجازة في النهاية بعد موافقة الشيخ على كيفية التلاوة، وهكذا شيخا عن شيخ، بالسند المتصل إلى النبي صلى الله عليه وسلم، إلى جبريل عليه السلام عن رب العزة عز وجل.

فكان بإمكان الصحابة أن يعتمدوا على الحفظ بالنسبة للقرآن على عادتهم في حفظ دواوين الأشعار، تواريخ الأمجاد، ولم يلتفتوا إلى رسمه، ،إذا رسموه كان بإمكانهم كتابته على وجه القياس، ولم تم رسمه كذلك لكان خاليا من الإعجاز، ولما كان معنى لخاصية

التلقي والمشافهة، ذلك أن الرسم العادي يجعل قراءة القرآن عادية ويكون بإمكان أي قارئ أن يقرأه لوحده، دون الاعتماد على السماع من الشيخ وبالتالي ينقطع السند وتصبح بذلك قراءة القرآن عرضة للأخطاء.

ومن حكمة الله سبحانه وتعالى أن لا يكتب كلامه بالرسم المعتاد، المفارقة بينه وبين سواه، فوفق صحابة رسوله الكريم إلى ما يميز القرآن عن غيره شكلا، كما هو مميز مضمونا، لذلك تراهم اعتنوا برسمه وإتقانه من حيث تخطيطه وإحكام بنيته المتمثلة في الجانب الاصطلاحي لدرجة الإعجاز.

وهذا سر من أسرار هذا العلم، فلا تملك إلا أن تقول: جزى الله عنا بالخيرات من خط لنا القرآن خطا مميزا جميلا، لا يقبل التغيير مهما تغيرت خطوط غيره من كلام البشر. لقد تلقى النبي صلى الله عليه وسلم القرآن عن ربه بصيغه المختلفة، وقد اختار القراء من هذه الصيغ ما يرونه مناسبا، سواء من حيث اللهجة أو غير ذلك، فالقارئ عندما يريد القراءة يختار منها ما يناسبه أو يعتقد أنه بها يتقرب إلى الله[20].

ولا يمكن أداء هذه الصيغ أداء صحيحا إلا إذا كانت مطابقة للرسم العثماني، فالرسم العثماني يعين على القراءة يقول صاحب الاختيار: "رسم المصحف يعين النقل الشفوي في صيانة القرآن الكريم"[21]، وقد رسمت المصاحف وفق هذه الأحرف على قول بعض العلماء أمثال الزرقاني إذ يقول في الأمر: "ولقد أسلفنا لك ما اخترنا في تحديد المراد من الأحرف السبعة وأنها الأوجه التي يرجع إليها كل اختلاف في القراءات سواء منها ما كان صحيحا، شاذا ومنكرا وأنها تنحصر في سبعة على ما ذكره الرازي الذي حالفه التوفيق في الدقة والاستقراء التام ونحن إذا رجعنا بهذه الأوجه السبعة إلى المصاحف العثمانية، وما هو مخطوط بها في الواقع ونفس الأمر نخرج بهذه الحقيقة التي لا تقبل النقض، نصل إلى فصل الخطاب في هذا الباب وهو أن كل واحد من هذه المصاحف اشتمل على ما يوافق رسمه من هذه الأحرف كلا أو بعضها بحيث لم تخل المصاحف في مجموعها عن حرف منها رأسا"[22].

وبما أن مراد الله تبارك وتعالى يتعدد، جاء القرآن الكريم متعددا في قراءته، فهو ليس في قراءة واحدة ولا في رواية واحدة وإنما هو في القرآن كله.

وقد جسد الصحابة هذا التعدد في رسمهم لكتاب الله تعالى حيث فرقوا مختلف اللهجات على مختلف المصاحف تسهيلا لهذه الأمة وتيسيرا لها في قراءة كتاب الله تعالى وحفظه بشكل لا يحتمل معه التغيير ولا التبديل جزاهم الله عنا وعن المسلمين كل خير والتي تناقلها صحابته والتابعين له ومن تبعهم إلى أن وصلتنا بشكلها الصحيح، وقد رأينا في مجال الفصل والوصل كيف أن دلالة الرسم على المعنى لها دور كبير في فهم القرآن الكريم، وكذا في مجال الحذف والإثبات والزيادة والنقص، فالرسم العثماني يدل على اتصال السند على صحابة رسول الله، ومن ثم عليه الصلاة والسلام، وبالتالي تثبت صحة القراءات ولا ينقطع اتصال المتلقين عن نبيهم وصحابته كما انقطع لليهود والنصارى في كتبهم، وقد ذكر نحو هذه المفاهيم الدكتور عبد العزيز خياط بقوله: "ومنها أنه يربط حلقة مهمة من حلقات التطور الكتابي للخط العربي وصلة هذا الخط بالخط الإرامي والخطوط السامية الأخرى"[23].

كما يمكن الإشارة إلى أن وجه الإعجاز في علاقة الرسم بالقراءات القرآنية يتمثل في القاعدة السادسة من قواعد الرسم وهي فرش الحروف، فالفرش هو الكلام على كل حرف في موضعه من الحروف المختلفة فيما بين القراء، وذلك لانتشارها في مواضعها من سور القرآن الكريم فكأنها – كما قال صاحب الوافي[24]– تفرشت في السور، هو كثير في القرآن ولا يندرج تحت قواعد عامة. إذا فهو عبارة عن الكلمات التي تثبت قرآنيتها عن النبي صلى الله عليه وسلم بصيغ مختلفة– بمعنى الكلمات القرآنية التي قرأها النبي صلى الله عليه وسلم بصيغ مختلفة– بمعنى الكلمات القرآنية التي قرأها النبي صلى الله عليه وسلم بصيغ مختلفة، يقول القباتبي: "كانوا يطلقون لفظ الحرف على القراءة التي وردت في القرآن لأنها وجه من وجوه الأداء التي يتلى بها".

فكان من عجيب أمر الصحابة رضوان الله عليهم أنهم رسموا هذا النوع بصورة تحتمل الصيغ المختلفة للقراءة وجعلوها قاعدة من قواعد الرسم الاصطلاحي المسماة بفرش الحروف، ورسم الصحابة هذا النوع بصورة متطابقة مع أوجه القراءات الثابتة عنه صلى

الله عليه وسلم، يقول الأستاذ خليف: "ومن أعظم ما دعاهم إلى المخالفة اضطرارهم إلى جعل المصحف مطابقا لمختلف القراءات القرآنية الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم"[25].

وقد أعجبني رده على التعقيبات التي تناولها الأساتذة الحاضرون وعي عبارات تبين مرادنا من علاقة الرسم القرآني بالقراءات القرآنية كقوله: "أعتقد أن أكثرنا يعرف أن الله تعالى أنزل في سورة الفاتحة: «مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ »[26]، قرأ بعض القراء من العشرة "ملك يوم الدين"، وقرأ بعضهم "مالك يوم الدين" والمصاحف المتداولة الآن بين أيدي الناس موجودة فيها كلتا الروايتين، ولكن "ملك يوم الدين" من الملك و"مالك يوم الدين" من الملك، فالملك آت معنى من قول الله تعالى: «فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء» والملك يندرج في معنى قول الله تعالى: «لمن الملك اليوم لله الواحد القهار»، وتوضيح هذا أن المِلْك معناه الاقتناء، والمُلْك معناه النفوذ والسلطان، فهذا القلم الذي بيدي هو ملك لي لا يملكه أي ملك من ملوك لدنيا فأنا المالك له، وأما السلطان والنفوذ في أي إقليم من المماليك الموجودة في الأرض فأنا ليس لي فيها حظ وهكذا جمع الله لذاته العالية بين الوضعين الاثنين.

فهل يريد الجماعة الذين اقترحوا أن نقتصر في الرسم على ما هو الرسم القياسي؟ أنه صفة يريدون أن يطرحوها عن الله، وأية صفة يريدون إثباتها لله؟ مع أن الله أوحى إلى نبينا صلى الله عليه وسلم بهاتين القراءتين وقد ثبتتا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. فإذا التزمنا إحدى الطريقتين نفينا إحدى الصفتين عن الله وأثبتنا له الأخرى[27].

ومن ذلك قوله تعالى: «إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ »[28]، رسمها الصحابة بالشكل التالي: "ان هدان لساحران" من غير نقط ولا شكل ولا تشديد ولا تخفيف في نوني إن وهذان، ومن دون ألف ولا ياء بعد الذال من هذان. فجاء هذا الشكل موافقا لقراءة الكلمة المعينة بأربعة وجوه واردة قراءتها عن النبي صلى الله عليه وسلم، فمنهم من يقرأ بتشديد النون في (إن) وتخفيف (هذان) بالألف، هي قراءة الإمام نافع ومن معه، ومنهم من يقرأ بتخفيف النون من (إن) وبتشديدها من (هذان) وهي قراءة ابن كثير، ومنهم من يقرأ بتخفيف النون من (إن) و(هذان) بالألف وهي قراءة عاصم من رواية حفص، ومنهم من يقرأ بتشديد النون من (إن) وبالياء وتخفيف النون في (هذان) وهي قراءة أبي عمرو والبصري، إذا تدبرنا مثل هذه القواعد الضابطة لوجوه القراءة ندرك حقيقة الإعجاز المتمثل في عبقرية الصحابة رضوان الله عليهم، كما قال الزرقاني: "لتعلم أن سلفنا الصالح كان في قواعد رسمه للمصحف أبعد منا نظرا وأهدى سبيلا"[29].

ومن ذلك لفظ (أسارى) من قوله تعالى: «وَإِن يَأۡتُوكُمۡ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمۡ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيۡكُمۡ إِخۡرَاجُهُمۡۚ »[30] حيث قرئ (أَسْرى) بسكون السين، كما قرئ (أُسَارى) بفتحه ومده فكلاهما جمع تكسير، إلا أن الأول جمع كثرة والثاني جمع قلة، وثبت الرواية بذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم، فكتبها الصحابة (أسرى) لتشمل التلاوة كلا النوعين من القراءات ومثله لفظ (تُفَادُوهُم) حيث قرئ (تفْدوهم) بسكون الفاء، كما قرئ (تفادوهم) بفتحها مع المد.

ولفظ (مساكين) نحو قوله تعالى: «وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ »[31] قرئ بسكون السين (مسْكين)، وبالفتح مع المد (مسَاكين) ولفظ (رهان) في قوله تعالى: «۞ وَإِن كُنتُمۡ عَلَىٰ سَفَرٖ وَلَمۡ تَجِدُواْ كَاتِبٗا فَرِهَٰنٞ مَّقۡبُوضَةٞۖ »[32]، ولفظ (باعد) قرئ بكسر العين وتشديدها (بعِّد) كما قرئ بتخفيها مع الألف قبلها (بَاعد) وذلك في وقوله تعالى: «فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ »[33]، إلى غير ذلك مما يحتمل أكثر من قراءة، وهناك كلمات وردت قراءتها بثلاثة أوجه نحو قوله تعالى: «وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ »[34]، حيث قرأها نافع وابن كثير وابن عامر وخلف عن حمزة والكسائي (ويتقه) أي لكسر القاف وصلة الهاء، وقرأها حفص عن عاصم بسكون القاف وكسر الهاء من غير صلة، قال الأهوازي : "كلهم كسر القاف إلا حفص"[35]. فرسمت من طرف الصحابة بالشكل المشترك (ويتقه) على وجه يحتمل القراءات الثلاثة.

ومن الكلمات ما يحتمل أربع قراءات نحو قوله تعالى: «وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓ »[36]، فلفظ بشرا، قرأه بن عامر بالنون المضمومة بدل النون وسكون الشين (نُشْرا)، وقرأه عاصم بالباء المضمومة بدل النون، وسكون الشين (بُشْرا)، وحمزة الكسائي يقرأنه بالنون المفتوحة وسكون الشين (نَشْرا) ونافع وابن كثير وأبو عمرو يقرأونه بالنون والشين المضمومتين (نُشُرا). وهكذا ثبتت فيها أربع قراءات متواترات، ولكن الصحابة كتبوها بشكل يحتمل جميع هذه القراءات هكذا (نسرا) بدون نقط ولا شكل.

ومنها ما يحتمل ست قراءات نحو كلمة (أرجئه) من قوله تعالى: «قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ»[37]، فقد قرأها قالون عن نافع بترك الهمزة وكسر الهاء، وقصرها هكذا (أرجهِ) وقرأها ورش والكسائي بترك الهمزة وكسر الهاء مع الإشباع أي المد، فقرأها ابن كثير وهشام بالهمز الساكن مع ضم الهاء وإشباعها (أرجئْهُ)، وقرأها أبو عمرو بالهمز الساكن مع ضم الهاء وقصرها، وقرأها ابن ذكوان بالهمز الساكن مع كسر الهاء وقصرها، أما عاصم وحمزة فقد قرأها بترك الهمزة وإسكان الهاء (أرجه)، فصار بذلك في الكلمة ست قراءات مشهورة، ثلاثة للهامزين: الأولى لابن ذكوان وهشام والثانية لأبي عمرو، والثالثة لابن ذكوان، وثلاثة لغير الهامزين: الأولى لقالون والثانية لورش والكسائي والثالثة لعاصم وحمزة. والصحابة كتبوا هذه الكلمة بهذا الشكل (أرجه) وهو رسم يحتمل القراءات الستة الواردة بالتواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم.

كما سبق فحذف الألف في نحو (تفادوهم)، و(رهان)، وعدم وضع النقط في (نشرا)، وحذف الياء بالهاء وصلتها في (أرجئه) مع عدم وجود الهمزة، كل ذلك كان من تخطيط الصحابة لقوة علمهم ودرايتهم بكتاب الله تعالى وبالقراءات الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وحدة ذكاؤهم وفطنتهم، ليكون المصحف الشريف محتملا كل القراءات والروايات والأوجه، ولو لم يقوموا بمثل هذا الحذف لكان المصحف العثماني لا يحتمل إلا قراءة واحدة[38].

هذا فيما يتعلق بفرش الحروف الذي يؤكد بواسطته الصحابة ضرورة الرسم الاصطلاحي، وهناك جانب آخر لا يقل عنه أهمية في وجوب الرسم الاصطلاحي وضرورته، وهو كيفية تعامل الصحابة مع المصحف بغية الحفاظ على كتاب الله تعالى.

وقد تمت كتابة المصاحف من طرف اللجنة الرباعية تحت إشراف سيدنا عثمان بن عفان وفق هذه القواعد الستة، والذي دعاهم إلى انتهاج هذه الخطة في رسم المصاحف وكتابتها – كما أشار إلى معناه الزرقاني- أنهم تلقوا القرآن عن الرسول بجميع وجوه قراءاته وبكافة حروفه التي نزل عليها فكانت هذه الطريقة الأقرب إلى الإحاطة بالقرآن من جانب الرسم على وجوهه كلها حتى لا يقال إنهم أسقطوا شيئا من قراءاته أو منعوا أحدا من القراءة بأي حرف شاء، في حين أنها كلها منقولة تواترا عن النبي صلى الله عليه وسلم.

كما كان هذا التخطيط من طرف سيدنا عثمان حلا لمشكلة الاختلاف بين المسلمين في القراءات القرآنية والذي أوشك أن يشعل الفتنة ويسبب الفرقة فيما بينهم، وبهذا يكون القرآن قد كتب على ثلاثة مراحل: الأولى في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، والثانية في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه، والثالثة في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه[39].

3-دواعي الرسم العثماني :

أولا: الغاية من الرسم

المعروف عند علماء اللغة أن ألأصل في الكتابة أن يكون الخط مطابقا للفظ، بمعنى أنك ترسم الكلمة الملفوظة حسبما تنطق بها، وهو الأجمل في رسم القرآن الكريم، بحيث يكون المكتوب تماما كالمنطوق، بلا حذف ولا زيادة، ولا تغيير للحروف ولا تبديل، إلا أن هناك الكثير من الكلمات القرآنية خرج بها الصحابة عن هذه القاعدة، فجاء رسمها مخالفا لما هو متعارف عليه في أصول الكتابة. وظلت ثابتة في المصاحف القرآنية إلى يومنا هذا فلا مبدل لما قام به تلاميذ المدرسة المحمدية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فجاءت هذه الكلمات القرآنية المقصورة والتي خرج فيها الصحابة عن أصل القواعد العربية، متميزة بالحذف والزيادة نحو

زيادة ألف بين الجيم والياء في لفظ (جيء) فكتبت (جايء) في نحو قوله تعالى: «...بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ »[40]، وزيادة الألف في لفظ لأذبحنه من قوله تعالى: «... فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ ، لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ »[41].[42]

ثانيا: ضرورة الرسم

إن خروج الصحابة في عملية الكتابة عن المألوف المتعارف عليه في قواعد الرسم مقصورة، وأهداف منشودة، وإشارات هادفة موروودة، منها ما عرف حكمه، ومنها ما خفي عنا علمه، و لم يكشف لنا سره.

آنذاك لم يكن أمرا عاديا فرضته ظروف الخط كما قال بعض القائلين من العلماء، وإنما هو دلالات بهدف التنبيه والإشارة إلى أشياء في غاية الأهمية والاعتبار، مما يتعلق بحفظ كتاب الله تعالى والمحافظة عليه، ومن هذه الدلالات رسم القرآن في مصحف شريف رسما خاصا وبكيفية تتوافق مع جميع الروايات والقراءات القرآنية الثابتة بالتواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم، ومخالفتهم للقياس –كما قال العلماء– في كلمات معدودة، لأغراض مقصودة، وأهداف منشودة، وإشارات هادفة موروودة، منها ما عرف حكمه، ومنها ما خفي عنا علمه، و لم يكشف لنا سره، وهذا غاية الإعجاز.

ولعل من أسرار هذا الرسم، أن لا يكتب كلام الله بالرسم المعتاد للمفارقة بينه وبين سواه، ولكي يبقى الأصل في قراءة القرآن هو التلقي والمشافهة، وهي من أجمل الخواص التي تميز القرآن عن غيره[43]، فيقرأ القارئ، ويستمع السامع، ثم يعيد السامع قراءة ما سمعه، والقارئ يسمع ليجاز في النهاية بعدما يوافق الشيخ على كيفية التلاوة وهكذا شيخا عن شيخ، بالسند لمتصل إلى النبي صلى الله علي وسلم إلى جبريل عليه السلام، إلى الله تبارك وتعالى، ولو تم رسمه من قبل الصحابة رضوان الله عليهم بالرسم القياسي لكان خاليا من الإعجاز في هذا الجانب، أي جانب التلقي، ولا استطاع أي قارئ أن يقرأه لوحده دون السماع من الشيخ فينقطع السند وتصبح بذلك قراءة القرآن عرضة للأخطاء.

ثالثا: الإعجاز في الرسم

الإعجاز بالنسبة لكتاب الله تعالى وارد في مبناه ومعناه أي إعجاز لفظي في شكله وعدد حروفه وآياته وكلماته، ومن أوجه الإعجاز كما قال الباقلاني: "ذلك أن نظم القرآن على تصرف وجوهه"[44].

فالرسم القرآني جانب من جوانب الدراسات القرآنية التي من شأنها الإعجاز، إلا أنه يظهر لنا اندراجه تحت وجه نقض العدة لماهما من التشابه والاشتراك في كون الرسم القرآني أيضا خارج عن العادة وقعد الخلق فيه عن المعارضة، ذلك أن العادة كانت جارية بقواعد معروفة في الخط والكتابة، فجاء رسم القرآن بطريقة عبّر فيها الصحابة عنه بأسلوب يفوق كل تعبير، إذ ليس من عادة العرب أن يرسموا الكلمة على غير ما تنطق به، فلو طلبوا مثلا برسم الصلاة أو الزكاة كما كتبوها: "الصلوة"، "الزكوة" لأن عرف الكتابة عندهم أن تكتب هكذا: "الصلاة"، "الزكاة"، أما وقد أبدلت فيها الألف كما أبدلت الواو والياء في كثير من الكلمات القرآنية أو حذفت أو أضيفت، فإنه يفهم من ذلك أمرين في غاية الأهمية هما:

الأول: أن مجال التعليل لمثل هذه التغيرات في رسم حروف الكلمة القرآنية لازال مفتوحا قابلا للبحث والاستنتاج، و لم يقف أحد من علماء الرسم أو غيرهم من علماء الإسلام على رأي نهائي منضبط مدعم بالأدلة العقلية والنقلية، وهذا هو الإعجاز بعينه.

الثاني: أن التوجيه والتعليل الذي قام به علماء الرسم القرآني نتيجة بحوث ودراسات، خاصة ابن البناء المراكشي، بينت لنا جزء من الحقيقة على الأقل تتمثل في عمق هذه العملية وبعد نظر الصحابة لدرجة الإعجاز.

فإذا كان الرسم لغة هو الخط والطريق، وقد تبين لنا من أسلوب الصحابة من خلال القواعد المستعملة نوعية الطريق واتجاه هذا الخط، إنها الطريق الدالة على فهم مراد الله تعالى من كلامه، إذ جعله الصحابة في شكل يوحي إلى المعنى من خلال وضع الحروف وهذا من الإعجاز وفق تعبير الدكتور أحمد ياسوق عن الإعجاز القرآني إذ يقول: "إذ تعين في امتلاك المعنى في أجمل صورة"[45].

قائمة لأهم المصادر و المراجع المعتمدة:

القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم

- رحلة الخط العربي – أحمد شحان – اتحاد الكتاب العرب- دمشق- سورية- ط2001

- الفهرست – ابن نديم محمد ابن إسحاق- تحقيق: ناهد عباس- دار قطوى ابن الفجاء- الدوحة- ط1- 1985-

- لسان العرب – ابن منظور – تحقيق: عامر أحمدج حيدر – دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان-ط1- 1413هـ - 1993م- مادة رسم-

- ملتقى الفكر الإسلامي الخامس عشر "ملتقى القرآن الكريم"- وزارة الشؤون الدينية- الجزائر- ط1401هـ -1981م-

- القراءات القرآنية- عبد الهادي فضيلي-دار القلم -1995

- الوجيز في شرح قراءات القرأة الثمانية أئمة الأمصار- الأهوازي- تحقيق: حن أحمد- دار الغرب الإسلامي- بيروت- ط1- 2002.

- دليل الحيران على مورد الظمآن – إبراهيم المارغني التونسي- دار الحديث- القاهرة- دط-دت-

- مناهل العرفان في علوم القرآن- الزرقاني -تح: فواز أحمد زمرلي- دار الكتاب العربي- ط1 - 1415ه-1995م

- الإتقان في علوم القرآن – جلال الدين السيوطي- تحقيق: السعيد المندوب- دار الفكر – لبنان- ط1- 1416هـ - 1996م- ج2-

- شرح الشفا- قاضي عياض- تحقيق: عبد الله الخليلي- دار الكتب العلمية- ط1- 1421هـ - 2001م-

- مقدمة – ابن خلدون- دار الكتاب اللبناني – لبنان – ط3- 1967م- المجلد1.

- الاختيار في القراءات: الرسم والضبط- محمد بلوالي- ط1- 1418هـ- 1997- - إيضاح الرموز ومفتاح الكنوز، الجامع للقراءات الأربعة عشر- محمد بن خليل بن أبي بكر شمس الدين بن عبد الله الشهير بالقباتي – تحقيق: فرحات عياش- ديوان المطبوعات الجامعية- 1995-

- إعجاز القرآن – القاضي أبي بكر محمد الطيب الباقلاني- دار الكتب العلمية – بيروت- لبنان- ط1- 1996-

- جماليات المفردة القرآنية- أحمد ياسوق- دار الكتب- دمشق- ط2- 1419-هـ- 1999م-

الهوامش

[1] – رحلة الخط العربي – أحمد شحان – اتحاد الكتاب العرب- دمشق- سورية- ط2001، ص 7.

[2] – المرجع نفسه، ص 12.

[3] – الفهرست – ابن نديم محمد ابن إسحاق- تحقيق: ناهد عباس- دار قطوى ابن الفجاء- الدوحة- ط1- 1985- ص 31، 35.

[4] – لسان العرب – ابن منظور – تحقيق: عامر أحمدج حيدر – دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان-ط1- 1413هـ - 1993م- مادة رسم- ص 154.

[5] – لسان العرب – ابن منظور – ص 155.

[6] – ملتقى الفكر الإسلامي الخامس عشر "ملتقى القرآن الكريم"- وزارة الشؤون الدينية- الجزائر- ط1401هـ -1981م- ص 51.

[7] – القراءات القرآنية- عبد الهادي فضيلي- ص 114.

[8] – الوجيز في رسم كتاب الله العزيز- بلعالية دومة علي- ص 12.

[9] – المرجع نفسه، ص 13.

[10] – المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[11] – دليل الحيران على مورد الظمآن – إبراهيم المارغني التونسي- دار الحديث- القاهرة- دط-دت-ص 33.

[12] – مناهل العرفان في علوم القرآن- الزرقاني -تح: فواز أحمد زمرلي- دار الكتاب العربي- ط1 - 1415ه-*1995م-ص 377.*

[13] – الإتقان في علوم القرآن – جلال الدين السيوطي– تحقيق: السعيد المندوب– دار الفكر – لبنان– ط1– 1416هـ - 1996م– ج2– ص 196.

[14] – شرح الشفا– قاضي عياض– تحقيق: عبد الله الخليلي– دار الكتب العلمية– ط1– 1421هـ - 2001م– ص 288.

[15] – الإتقان في علوم القرآن – جلال الدين السيوطي– ص 169.

[16] – ملتقى القرآن– ج1– ص 59– نقلا من مفتاح السعادة– ج2– ص 372.

[17] – مقدمة – ابن خلدون– دار الكتاب اللبناني – لبنان – ط3– 1967م– المجلد1– ص 248.

[18] – المصدر نفسه، ص 249.

[19] – المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[20] – الاختيار في القراءات: الرسم والضبط– محمد بلوالي– ط1– 1418هـ– 1997– ص 32.

[21] – الاختيار في القراءات: الرسم والضبط– محمد بلوالي – ص 33.

[22] – مناهل العرفان– علوم القرآن للزرقاني– ص 169.

[23] – مجلة الأصالة ملتقى القرآن للملتقى الخامس للفكر الإسلامي– 58.

[24] – إيضاح الرموز ومفتاح الكنوز، الجامع للقراءات الأربعة عشر– محمد بن خليل بن أبي بكر شمس الدين بن عبد الله الشهير بالقباتي – تحقيق: فرحات عياش– ديوان المطبوعات الجامعية– 1995– ص 17.

[25] – المصدر نفسه، ص 72.

[26] – الآية: 4، سورة الفاتحة.

[27] – مجلة الأصالة ملتقى القرآن– ص 181.

[28] – الآية: 63، سورة طه.

[29] – مناهل العرفان– الزرقاني– ص 374.

[30] – الآية: 85، سورة البقرة.

[31] – الآية: 184، سورة البقرة.

[32] – الآية: 283، سورة البقرة.

[33] – الآية: 19، سورة سبأ.

[34] – الآية: 52، سورة النور.

[35] – الوجيز في شرح قراءات القرأة الثمانية أئمة الأمصار– الأهوازي– تحقيق: حن أحمد– دار الغرب الإسلامي– بيروت– ط1– 2002– ص 268.

[36] – الآية: 55.سورة الأعراف.

[37] – الآية: 111، سورة الأعراف. الآية: 36، سورة الشعراء.

[38] – الوجيز في شرح قراءات القرأة الثمانية أئمة الأمصار– الأهوازي– ص 269.

[39] – مناهل العرفان في علوم القرآن – الزرقاني– ص 269.

[40] – الآية: 69، سورة الزمر.

[41] – الآيتان: 20–21، سورة النمل.

[42] – الوجيز في رسم كتاب الله العزيز– بلعالية دومة علي– ص 18.

[43] – الوجيز في رسم كتاب الله العزيز– بلعالية دومة علي– ص 19.

[44] – إعجاز القرآن – القاضي أبي بكر محمد الطيب الباقلاني– دار الكتب العلمية – بيروت– لبنان– ط1– 1996– ص 30.

[45] – جماليات المفردة القرآنية– أحمد ياسوق– دار الكتب– دمشق– ط2– 1419–هـ– 1999م– ص 206.